محاضرة رقم (03)

البلاغة عند البلاغيين القدامى(الجاحظ، الجرجاني، ابن الأثير،العسكري، السكاكي...) :

توطئة :

بعد أن استعرضنا في المحاضرتين السابقتين الحديث عن البلاغة من حيث المفهوم والنشأة، ثم الفرق بينها وبين مصطلحات تتداخل معها في الاستعمال أهمّها الفصاحة، نعرض في هذه المحاضرة إلى تفصيل معنى البلاغة عند عدد من البلاغيين القدامى، حيث نورد نصوصا في مفهومها مأخوذة من أهم مصنّفات كل علم بلاغي، ونحلّل ما جاء فيها من معان، وأخيرا نورد خلاصة عامة في مفهومها تتضمن ما اتفق فيه سائر من كتبوا فيها واشتغلوا بها .

أولا : البلاغة عند الجاحظ :

البلاغة عند الجاحظ اسم يشمل فنون القول المختلفة التي عرفها العرب أو أبدعوها من قصيد ورجز ومنثور وسجع وغير ذلك [1]، مما يدل عليه ما جاء في قوله في كتابه **"البيان والتبيين"**: « ونحن – أبقاك الله – إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت » [2] .

---

[1] محمد هيثم غرّة، البلاغة عند المعتزلة، بحث مقدّم لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف أ.د مزيد نعيم، الدراسات العليا، قسم اللغة العربية وآدابها، ص 85 .

[2] - الجاحظ، البيان والتبيين، 29/3 .

ويعرض الجاحظعدّ ة تعاريف للبلاغة، يرجع فيها إلى ما بين اللفظ والمعنى من العلاقة، فالمعنى الشريف لابد له من اللفظ البليغ، ولا يطلب البليغ هذا اللفظ من المعاجم اللغوية، وا ٍنما يطلبه من صحة الطبع، والبعد عن الاستكراه والتكلف، والأمر في البلاغة يلخّ صه قولهم بشأن الكلمةأنّ ها «إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وا ٍذا خرجت من اللسان لا تتجاوز الآذان » [3] .

وعماد البلاغة أن لا تكثر الألفاظ وتقل المعاني، « فالأدب شر من عدمه إذا كثر وقلّ ت القريحة »وهذه العبارة التي نقلها الجاحظ عن بعض الحكماء، لا تزال حيّ ة ذات قيمة في الأسلوب، وتكاد تكون بعينها العبارة التي قالها فولتير **(Voltaire)**بعده بعدّ ة قرون ناقدا بلغاء عصره « طوفان من اللفظ على صحراء من الفكر » [4] .

والبلاغة عند الجاحظ لذلك تتوازعها ثلاثة معان أساسية، المعنى الأول هو الانتهاء إلى الغاية في التبيين والإفهام بأسلوب عال يقوم متحدثا عن العرب [5]، وذلك دليل قوله واصفا إيّ اهم وهم وا ٍن كانوا يحبّ ون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة والتخلص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر والتكلف والإسهاب » [6] .

أما المعنى الثاني فهو الكلام البليغ نفسه، بما يتضمن من أصناف وأجناس [7]، وهو ما يستدلّ له الجاحظ بالقول السابق في بداية المحاضرة : « ونحن – أبقاك الله – إذا ادعينا

---

[3] - إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان – دراسة تحليلية نقدية تقارنية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1371 هـ – 1952 م، ص 80 .

[4] - نفسه، ص 80 .

[5] محمد هيثم غرّ ة، البلاغة عند المعتزلة، ص 85 .

[6] - الجاحظ، البيان والتبيين، 191/1 .

[7] محمد هيثم غرّ ة، البلاغة عند المعتزلة، ص 86 .

للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج ... » [8] .

ويدلّ المعنى الثالث على حسن الكلام وجودته، ووضوح المعنىوسهولته، إذ يعقّب الجاحظ على قول القاضي يحي بن يعمر - وقد شكت إليه امرأة زوجها - « أأن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلّها وتضهلها »[9]، فيقول : « فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة، ولو خاطب بقوله الأصمعي لظننت أنه سيجهل بعض ذلك » [10] .

ثانيا : البلاغة عند الجرجاني :

ومن أجل الوصول إلى معنى ذلك عنده نعرض نصا مفاده الحديث عن البلاغة حيث يورد في كتابه "**دلائل الإعجاز**" قوله : «قد علم أنّ المعارض للكلام معارض له من الجهة التي منها يوصف بأنّه فصيح وبليغ ومتخيّر اللفظ جيّد السبك ونحو ذلك من الأوصاف التي نسبوها إلى اللفظ وإذا كان هذا هكذا فبنا أن ننظر فيما إذا أتي به كان معارضا ما هو ؟ أهو أن يجيء بلفظ فيضعه مكان لفظ آخر نحو أن يقول بدل أسد: ليث، وبدل بعد: نأى، ومكان قرب: دنا . أم ذلك ما لا يذهب إليه عاقل ولا يقوله من به طرق ؟ كيف ولو كان ذلك معارضة لكانت النّاس لا يفصلون بين الترجمة والمعارضةولكان كلّ من فسّر كلاما معارضا له وإذا بطل أن يكون من جهة للمعارضة وأن يكون الواضع نفسه في هذه المنزلة

---

[8] - الجاحظ، البيان والتبيين، 29/3 .

[9] محمد هيثم غرّة، البلاغة عند المعتزلة، ص 86 .

[10] - الجاحظ، البيان والتبيين، 378/1، 379 .

معارضا على وجه من الوجوه علمت أنّ الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني وا ٍلى ما يدلّ عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها..... » [11] .

ونستخلص من ذلك أنّ البلاغة والفصاحة وكلّ ما يعود إلى معناهما أوصاف يستدلّ عنها بالمعاني، وا ٍلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها، أي دون أن تكون المعاني المقصود بها معاني الألفاظ مفردة، بل هي المعاني التي تكتسبها الألفاظ بتجاورها ووجودها في سياق من التركيب، بمحاذاة ما يسبقها وما يليها، أي هي المعاني التي تكون للألفاظ إذا وضعت في سياق معيّن، وتتغيّر لذلكبتغيّر سياقاتها .

ثالثا : البلاغة عند ابن الأثير :

إذا أردنا أن نستوضح معنى البلاغة عند صاحب **"المثل السائر"** عرضنا ما يقوله في الفصل الثامن منه الذي أسماه (في الفصاحة والبلاغة) : «وأمّا البلاغة فإنّ أصلها في وضع اللغة من الوصول والانتهاء، يقال : بلغت المكان، إذا انتهيت إليه، ومبلغ الشيء منتهاه وسمّي الكلام بليغا من ذلك، أي أنّه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية »[12] ، أي اكتملت صفاته اللفظية والمعنوية وشروطه على وجهها الصحيح الذي يكون به دالا مقبولا غير ناقص ولا مردود .

ويضيف مكملا حديثه عنها «البلاغة شاملة للألفاظ والمعاني، وهي أخصّ من الفصاحة، كالإنسان من الحيوان، فكلّ إنسان حيوان، وليس كلّ حيوان إنسانا . وكذلك يقال

---

[11] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1428هـ/ 2007م، ص 265 .

[12] ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدّمه وعلّق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، دت، القسم الأول، ص 94 .

كلّ كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغا »[13]، فيجعل البلاغة وصف للألفاظ مع المعاني، والفصاحة متضمنة فيها وجزء منها، فيشابه العلاقة بينهما كالعلاقة بين الإنسان ووصف الحيوان .

ويفرّق بين الفصاحة والبلاغة فيقول : «ويفرَّق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غيرالخّا والعام، وهو أنّها لا تكون إلاّ في اللفظ والمعنى، بشرط التركيب، فإنّ اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة، ويطلق عليها اسم الفصاحة، إذ يوجد فيها الوصف المختصّ بالفصاحة، وهو الخلوأمّا وصف البلاغة فلا يوجد فيها، لخلوّها من المعنى المفيد الذي ينتظم كلاما »[14]؛فيعمّق التفريق بينهما رابطا البلاغة بالتركيب، فلا يكون وصف البلاغة إلا للكلام مركبا يفيد معنى، ويجعل الفصاحة للمفردة مفصولة أفادت معنى أم لم تفد .

رابعا : البلاغة عند العسكري :

أورد في كتابه "**الصناعتين في الكتابة والشعر**" مفصلا القول في البلاغة : « وقال محمد بن علي رضي الله عنهما : البلاغة قول مفقه في لطف؛ فالمفقه : المفهم، واللطيف من الكلام : ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكةالأبيّة المستصعبة، ويُبلغ به الحاجة، وتقام به الحجّة، فتخلص نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيّجه وتقلقه، وتستدعي غضبه، وتستثير حفيظته » [15]، فجمع للبلاغة الوضوح مع اللطف، أي وضوح المعنى وسهولته مع لطف اللفظ وليونته .

---

[13] - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص 94 .

[14] - نفسه، ص 94 .

[15] - العسكري، الصناعتين في الكتابة والشعر، ص 51 .

وأضاف في ذات المعنى قائلا : « وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : البلاغة إيضاح الملتبسات، وكشف عوّار[*] الجهالات، بأسهل ما يكون من العبارات . وقريب منه قول الحسن بن علي رضي الله عنهما : البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة . ومثله قول محمد بن علي رضي الله عنهما : البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ ... » [16]؛ وهو في كلّ ذلك يطلب للبلاغة وضوح الدلالة وجمال العبارة وقربها من الفهم ورسوخها في الذهن .

وزاد على ذلك «وقال ابن المقفّع البلاغة كشف ما غَمُضَ من الحقّ ، وتصوير الحقّ في صورة الباطل » [17]؛ واستدلّ على ذلك قائلا : « فأعلى رتب البلاغة أن يحتجّ للمذموم حتّى يخرجه في معرض المحمود والمحمود حتّى يصيّرَه في صورة المذموم . وقد ذمّ عبد الملك بن صالح المشورة، وهي ممدوحة بكل لسان، فقال : ما استشرت أحدا إلاّ تكبّر علي وتصاغرت له، ودخلته العزّة ودخلتني الذلّة؛ فعليك بالاستبداد فإنّ صاحبه جليل في العيون، مَهيبٌ في الصدور؛ وإذا افتقرت إلى العقول حقرتك العيون، فتضعضع شأنك، ورجفت بك أركانك، واستحقرك الصغير، واستخفّ بك الكبير، وما عزّ سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه وآراء نصحائه ... » [18]؛ فرغم أنّ للمشورة قيمتها الإيجابية، فالرسول نصح بها في قوله "وأمرهم شورى بينهم"، غير أنّ بلاغة عبد الملك بن صالح في ذمّها أظهرتها كذلك، وهذا ما قصده بن المقفّع في قوله في تعريف البلاغة من إظهار تصوير الحقّ في صورة الباطل .

---

[*] - العوار كلّ ما أعلّ العين، والرمد والقذى .

[16] - العسكري، الصناعتين في الكتابة والشعر، ص 51، 52 .

[17] - نفسه، ص 53 .

[18] - نفسه، ص 53 .

خامسا :البلاغة عند السكّاكي :

جاء في كتاب السكّاكي تعريف البلاغة في قوله : « هي بلوغ المتكلّم في تأدية لمعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواص التركيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها، وأعني البلاغة طرفان : أعلى وأسفل، متباينان تباينا لا يتراءى له ناراهما، وبينهما مراتب، تكاد تفوت الحصر، متفاوتة؛ فمن الأسفل تبتدئ البلاغة، وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه في صدر الكتاب من أصوات الحيوانات، ثمّ تأخذ في التزايد، متصاعدة إلى أن تبلغ حدّا لإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة . ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلاّ، وطريق اكتساب الذوق : طول خدمة هذين العلمين » [19] .

ويضيف موضّحا ومفصّلا في معناها «نعم، للبلاغة وجوه ملتثمة، ربما تيسّرت إماطة اللثامعنها، لتجلى عليك، أمّا نفس وجه الإعجاز فلا » [20] .

فنجد أنّ السكّاكي في قوله الأوّل يقرن البلاغة بأمرين هما : تأدية المعاني أي إيصالها من المتكلّم إلى السامع وفهمها،وكذا صحة التراكيب وتوفيتها حقّها، أي إيرادها على وجهها الصحيح الذي به تقبل وتفهم، ويزيد على ذلك أنّه إذا ضمّن حديثه التشبيه والمجاز و الكناية – وهي من مستوجبات البلاغة وصورها - وجب عليه مراعاة توظيفها بشكلها الصحيح وفي مكانها وموقعها .

---

[19] -السكّاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1407هـ/ 1987م، ص 415

[20] - نفسه، ص 415

كما أنّه في نفس القول يجعل البلاغة مراتب ودرجات أعلاها الإعجاز وأدناها ما يقترب من أصوات الحيوانات، وبين هاتين الرتبتين مراتب ودرجات تتصاعد وتتزايد، وا ٍدراك ذلك مرتبط بما يسميه بالذوق، الذي يصقل بالمران والممارسة .

والسكّاكي في قوله الثاني -و هو تابع للأول - حين يقول للبلاغة وجو ه ملتثمة، أي مراتب كثيرة غير معروفة، ربما استطعنا إماطة اللثام عنها ومعرفتها وا ٍدراك مداها، إلا وجه واحد هو وجه الإعجاز فإنّ إدراكه صعب وغير متيسّر لدينا نحن البشر إلا بالمقاربة والوصف لا بالقطع والجزم لأنّه ما يميّز كلامه سبحانه وتعالى ويسم كتابه ورسالته لمحمد صلى الله عليه وسلّم .

خلاصة عامة في مفهوم البلاغة :

يمكن القول استخلاصا لمفاهيم البلاغة وتعريفاتها لدى ثلّة ممن اشتغلوا بها ووضعوا حدودا لها أنّها عنيت بداية بوضوح المعاني وسهولتها وكذا تخيّر الألفاظ وسلامة التراكيب وصحّتها، مع العناية بمن نتوجّه لهم بالقول والحديث، ذلك بأن نناسب ما نتكلّم به لأذهانهم وأفهامهم حتّى يصل إليهم كاملا غير منقوص ولا مبتذل، ولا مستقبح ولا مستكره، بعيدا عن كلّ ما يشوبه من تكلّف أو صنعة أو تعقيد .